[سبأ] بمعنى المحمود على ما يُعطى من النِّعَم ، فهى تُرغِّبك فى المزيد من نعَم الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** .. ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ] معلوم أن القول يحتاج إلى قائل ، وإلى مقُول له ، القائل هم الذين كفروا ، قالوا : لمن ؟ قالوا بعضهم لبعض وهم يتسامرون ، أو قال المتبوع منهم لتابعه الذى يقلده . أما قولهم فهو ﴿ **هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ]

ويلفت أنظارنا فى هذا القول أنهم وصفوا سيدنا رسول الله ﷺ بكلمة (رجل) ، وهى نكرة قصدوا بها الاستهزاء والاستنكار والتقليل من شأنه ﷺ .

وهذا فى حد ذاته يدل على غبائهم وتغفيلهم ، فهم أنفسهم الذين وصفوه بأنه رسول الله حين قالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ **لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ** .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فدلَّ ذلك على غبائهم .

وهم أيضاً الذين قالوا - لما فَتَر الوحى عن رسول الله - إن ربَّ محمد قلاه[(١)] ، وهذا عجيب منهم ، فعند المحنة والسوء يعترفون أن لمحمد رباً .

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

وقولهم ﴿يُنَبِّئُكُمْ .. ⑦﴾ [سبأ] من النبأ ، ولا يُطلَق إلا على الخبر الهام وليس مطلق الخبر ، فمثلاً حين أقول لك : أكلتُ اليوم كذا وكذا ، وذهبتُ إلى مكان كذا لا يُعَدُّ هذا نبأ ؛ لأنه خبر عادى ، أما النبأ فخبر عجيب وهام وعظيم ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ②﴾ [النبأ]

ومعنى ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⑦﴾ [سبأ] التمزيق : إبطال الكل عن أجزائه ، وإبعاد الأجزاء بعضها عن بعض ، فمثلاً أنا أجلس الآن على كرسى ، هذا الكرسى كُلٌّ مكوَّن من أجزاء : خشب ومسامير وغراء وقطن وقماش .. إلخ ، فتمزيق هذا الكل أن أفصل هذه الأجزاء عن بعضها ، فينهدم هذا الكل إلى أجزاء .

وينبغى هنا أن نُفرِّق بين الكل والكلى : الكل مكوَّن من شىء كثير ، لكنه مختلف فى الحقيقة ، فالخشب غير المسمار غير الغراء غير القماش ، فكل جزء له تكوينه الخاص .

أما الكلى فيُطلق على أشياء كثيرة منفصلة ، إلا أنها متفقة فى الحقيقة ، كما نقول مثلاً : إنسان بالنسبة للأفراد شىء كلى ؛ لأن الإنسان يُطلق على كل المجموع ، بحيث يُقال عن كل فرد : إنسان ، إنما فى الكل لا أقول الخشب كرسى .

هذا هو التمزيق ، فماذا أضافت ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⑦﴾ [سبأ] ؟

أى : تمزيقاً شديداً يُمزِّق الكل ، ويمزِّق الجزء ، إذن : التمزيق له مراحل وصور ، فمعنى ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⑦﴾ [سبأ] استقصاء لأصغر شىء يصل إليه الممزَّق ، وهذا التمزيق نشاهده فى تحلل الميت وتفكُّك أجزائه وعناصره ، حتى تذهب فى الأرض ، لا يبقى لها أثر .

ومن ذلك قــولهم : ﴿وَقَــالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ⑩﴾ [السجدة]

فمعنى ﴿ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. ⑩﴾ [السجدة] أى : ذهبنا فيها وغبْنا فى متاهتها .

والتمزيق له أسـباب متعددة ، فمَنْ يمـوت ويُدفن تمزِّقه الأرض ، ومَنْ يموت محروقاً تمزِّقه النار ، وربما تذروه الرياح وتتبعثر ذراته ، ومَنْ تأكله الحيوانات والطير .. إلخ .

ومع هذا التمـزيق والتفتـيت والبعثـرة تستطيع قدرة الله أنْ تعـيد الإنسان من جـديد ، واقرأ : ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③﴾ [ق] يستبعدون البـعث ، فيردّ القرآن عليهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. ④﴾ [ق] يعنى : لا تستـعجـبوا ، فكل ذرة تبـعثرتْ نـعلمهـا ، ونعلم مكانها ، ونقـدر على إعادتـها ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق] يعنى : ليس مـجرد علم ، إنمـا علم مُســجَّل محفوظ ، لا يناله تغيير ولا تبديل .

وقوله : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦﴾ [سبأ] الخلق الجديد أنْ يُعاد الشيء إلى أصل تكوينه ، كـالذى يقلب البدلة مـثلاً فـتـصـيـر جديدة ، لماذا ؟ لأنه أعاد تكوينها من جديد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ⑧﴾

هذا القول كسـابقه يحتاج إلى قائـل ومقول له ، ويصح أنْ يكون

قائله هو القائل الأول الذى قال ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ .. ⑦﴾ [سبأ] ويصح أن يكون الآخر الذى سمع القائل الأول فردَّ عليه : ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ⑧﴾ [سبأ]

معنى ﴿أَفْتَرَىٰ .. ⑧﴾ [سبأ] من الافتراء ، وهو تعمُّد الكذب ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ⑧﴾ [سبأ] أى : جنون يعنى : كلامه هراء ، لا وزن له ، ولا يُقال له صدق ولا كذب . لكن لماذا اتهموا رسول الله بأن به جِنَّة بعد أن اتهموه بالكذب والافتراء ؟

قالوا : لأن هذا اتهام كذب ، والكاذب دائماً يخاف أنْ يُفتضح أمره ، وينكشف كذبه ؛ لذلك يحاول أنْ يجعل لنفسه مخرجاً حين يثبت كذبه ، فقالوا ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ⑧﴾ [سبأ] فإذا ما ثبت صدق رسول الله ، وأنه ليس كاذباً ولا مفترياً وجد المتهم له مخرجاً فقال : والله أنا لا أدرى أهو مُفْتر أم به جِنَّة ، وما دام ثبتَ صدْقه ، فهو به جِنَّة .

وعجيب أن يصف كفار مكة رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، وهو واحد منهم ، ما عرفوا عنه إلا أنه الصادق الأمين ، وما جرَّبوا عليه كذباً قط ، وما رأوْه يوماً خطيباً ولا شاعراً ، وهم أهل الفصاحة وفرسان الكلمة ، لا يَخْفى عليهم تذوُّق اللغة وفَهْم الأساليب العربية ، فكان عليهم أنْ يعقلوا أولاً قبل أنْ يُوجِّهوا لرسول الله هذا الاتهام .

ثم ، هل تأتى البلاغة ؟ وهل يأتى النبوغ بعد سنِّ الأربعين ؟ معلوم أن النبوغ يأتى فى أواخر العقد الثانى أو أوائل العقد الثالث من العمر ، ورسول الله ﷺ لَبثَ فيهم أربعين سنة قبل أنْ يُبلِّغهم عن الله كلمة واحدة .

لذلك يخاطبهم القرآن ، ويجادلهم بالحجة ، فيقول على لسان سيدنا رسول الله : ﴿ **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** (١٦) ﴾ [يونس] يعنى : تدبَّروا الأمر واعقلوه ، فأنتم أهل البلاغة واللسان الفصيح ، ومنكم الخطباء والشعراء ملأوا الدنيا كلاماً ، فهل رأيتم منى شيئاً من هذا ؟

إذن : الذى قال ﴿ **أَم بِهِ جِنَّةٌ ..** (٨) ﴾ [سبأ] احتاط لنفسه ، فحين يظهر صدْق رسول الله يقول هو : أنا قُلْت : إنه إما كاذب ، وإما مجنون .

ثم يردُّ الحق على هؤلاء : ﴿ **بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ** (٨) ﴾ [سبأ] كلمة (بَلْ) تفيد الإضراب عما قبلها ونفيه ورفضه ، ثم إثبات ما بعدها ، فهى تنفى أن يكون رسول الله مفترياً ، وتنفى أن يكون مجنوناً ؛ لأن رسول الله ما جرَّبتُمْ عليه كذباً من قبل ، وما رأيتم عليه علامة من علامات الجنون ؛ لأن المجنون لا يُحمد على فعل ، ولا يُذم على فعل ، ولا يُوصَف بصدق ولا كذب ، وقد سبق أن مدحتم رسول الله فقلتم عنه « الصادق الأمين » .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** (١) **مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** (٢) **وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ** (٣) **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** (٤) ﴾ [القلم] وهل يُوصَف المجنون بأنه على خلق عظيم ؟ هل يُوصَف المجنون بالأدب أو الوفاء أو غيرها من خصال الخلق الحميد ؟

فكيف إذن تصفون رسول الله بالجنون ، وقد شهدتم له بسيدة الخصال الحميدة فى النفس البشرية وهى الأمانة ، وكنتم تأتمنونه

على أشيائكم ، وتضعونها عنده ؟ لذلك خلَّف رسول الله الإمام علياً وراءه بعد أنْ هاجر ليرد الودائع والأمانات إلى أهلها[1] .

وبعد أن أبطل الحق سبحانه كذبهم على رسول الله يقرر ما يستحقونه على ذلك من العذاب ﴿ **بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ** ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ] في العذاب لأنهم اتهموا رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، ورسول الله لم يكذب ، ولم يفْترِ على الله ، وهم في الضلال البعيد ؛ لأنهم وصفوا رسول الله بالجنون ، وهو شيء مُخلٌّ بتكوينه إنما لم يكذب ، إذن : العذاب مقابل الاتهام بالافتراء على الله ، والضلال البعيد مقابل اتهامه ﷺ بالجنون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا[2] مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

الهمزة هنا للاستفهام . والمعنى : كيف يقولون هذا ويغفلون عن

---

(١) قال ابن إسحاق : لم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر ، أما علي فإن رسول الله فيما بلغني أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع ، التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ [سيرة ابن هشام ٢/٤٨٥] .

(٢) الكسفة : القطعة وجمعها كِسْف وكِسَف . وكسف السحاب : قطعه . [لسان العرب - مادة : كسف] .

آيات الله فى كونه ، وهى ظاهرة لهم غير مطموسة عليهم ؛ لأنهم يعيشون فى بادية سماؤها مكشوفة لهم ، ليستْ ذات عمائر تحجب عنهم آيات الله كأهل المدن مثلاً ، قلّما يَرَوْن الشمس أو القمر ، وإذا حدث كسوف أو خسوف لا يدرون به إلا من أخبار الصحف .

أمَّا أهل البادية فيعيشون فى صحراء شاسعة ، وتبدو لهم صفحة السماء ، أنيسهم الشمس بالنهار ، والقمر والنجوم بالليل ، وهم ينظرون إلى هذه الآيات ويتأملونها ؛ لذلك قال الرجل العربى(١) وهو يتأمل الكون من حوله وهو على الفطرة : سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج(٢) ، وبحار ذات أمواج ، القدم تدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : كيف وآيات الحق واضحة أمامكم - تتهمون رسول الله وتغفلون عن آيات الله ﴿ **أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** .. ﴿٩﴾ ﴾ [سبأ] معنى ﴿ **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** .. ﴿٩﴾ ﴾ [سبأ] أمامهم ﴿ **وَمَا خَلْفَهُم** .. ﴿٩﴾ ﴾ [سبأ] وراءهم ، ويمكنك أن تزيد يمينهم وشمالهم ؛ لأنك أينما سرْتَ فى هذه الاتجاهات فلن تجد إلا السماء ، حتى لو قلت تحتهم وحاولتَ أنْ تخترق الأرض فلا بُدَّ أن تصل فى النهاية إلى سماء فى الجهة الأخرى ، لكنه لم يقل تحتهم ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يخترق الأرض إلى نهايتها .

---

(١) هو : قس بن ساعدة بن عمرو ، من بنى إياد ، أحد حكماء العرب ، ومن كبار خطبائهم فى الجاهلية ، كان أسقف نجران ، كان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه ، طالت حياته ، وأدركه النبى ﷺ قبل النبوة ، ورآه فى عكاظ وسئل عنه بعد ذلك فقال : يُحْشَر أمة وحده . [الأعلام للزركلى ٥/١٩٦] .

(٢) الفج : الطريق الواضح الواسع ، وجمعه فجاج . قال تعالى : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : طرقاً واسعة واضحة . [القاموس القويم ٢/٧٢] .

ثم أيُّ عظمة فى خَلْق السماء بهذا الاتساع وهى بلا عمد ؟ إنك لا تستطيع إقامة خيمة مساحتها عدة أمتار إلا بأن تثبتها بالحبال والأوتاد وترفعها بالأعمدة ، ولو هبَّتْ عليها الريح اقتلعتْ أوتادها وأعمدتها وهدمتها على مَنْ فيها ، فكيف تمرُّ على آيات الله فى السماء وفى الأرض دون أن تتأملها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ .. (٩) ﴾ [سبأ] كما خسفها بقارون ﴿ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩) ﴾ [سبأ] كما نزلت الصاعقة من قَبْل على المكذِّبين للرسل و (كسفاً) جمع كسفة أى : قطعة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) ﴾ [سبأ] آية يعنى : عبرة وعظَة لكل عبد يحاول أنْ يرجع لربه .

فكأن الحق سبحانه جعل فى كونه هذه الآيات لتُذكِّر كل غافل ، وتردّ كل كافر ، وتعطفه إلى أنْ يرجع إلى ربه ، ولو رجع الكافر إلى ربه لَقَبلَه .

إذن : الحق سبحانه خلق الخَلْق ، ويريد أن يسعدهم ، لكن لا بُدَّ أنْ نختبر مَنْ يستحق السعادة ، وأنْ نُميز مَنْ أطاع منهج الله ومَنْ عصاه .

لذلك يقول النبى ﷺ : « مَثَلى ومَثَلكم كرجل أوقد ناراً فأخذ الذباب والفراش يتهافت عليها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلَّتون منى »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٥) من حديث جابر بن عبد الله ، واتفق عليه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ومعنى (آخذ بحجزكم) أى : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هى معقد الإزار ، ومن السراويل . موضع التكة .

فالحق سبحانه يفتح لعباده - حتى الكافرين منهم - باب الأمل ليعودوا إلى ساحته ، وقد ورد عن رسول الله أنه قال : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضلَّه فى فلاة »[1] ففتح بالتوبة وبالإنابة باب الرجوع إليه ، وخاصة إذا اكتملتْ للإنسان الوسائل الداعية للتوبة من تقدُّم السن أو المرض .. إلخ .

مما يبعد الإنسان عن مَظَانِّ الشهوات ، ويدعوه لأنْ يُقبل على الله ويصلح ما فسد من علاقته بربه وخالقه ، حتى إذا ما عاد إليه يوم القيامة عاد طاهراً من ذنوبه ؛ ذلك لأن الخَلْق خَلْقه ، وصَنْعته ، والصانع يريد لصنعته الخير والسعادة .

وسبق أنْ ذكرنا الحديث الذى يُوضِّح أن السماء والأرض والجبال والبحار تمردَّتْ على ابن آدم ، واستأذنت ربها - تبارك وتعالى - أن تفتك به . فقالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكْرك .. إلخ ، فماذا قال الحق سبحانه لها ؟ قال : دعونى وما خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم[2] .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

(٢) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه ، فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ (١)
وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ (٢)
وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

بعد أن فتح الحق سبحانه باب التوبة لعباده ، وأعطاهم الأمل حتى الكافرين منهم ، وبعد أنْ فعلوا برسول الله ما فعلوا ، وسعَوْا فى آيات الله معاجزين ما يزال الحق سبحانه رحيماً بهم ، حريصاً عليهم ، فيلفت أنظارهم إلى واسع رحمته .

وكأنه سبحانه يقول لهم : لا تستكثروا أفعالكم وذنوبكم أمام رحمة الله ، ولا تصدَّنكم هذه الذنوب عن التوبة والعودة إلى الله ، وإنْ كنتم أذنبتُم ، فمن الرسل مَنْ حدثت هفوة من بعضهم مع أنهم أنبياء ، فكأن الحق سبحانه مع هذا كله يلتمس لهم عذراً .

لذلك ذكر بعدها حكاية سيدنا داود : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً .. ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] وفى موضع آخر بيَّن ما كان من أمر سيدنا داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

إذن : لا تخجلوا أنْ تُنيبوا إلى الله ؛ لأن سيدكم الذى أعطيته

---

(١) أوبى معه : أى رددى الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام . [القاموس القويم ١/٤٢] . وقال ابن كثير فى تفسيره : « التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأُمرت الجبال والطير أن تُرجِّع معه بأصواتها » .

(٢) السرد : نسج حلقات الدرع وإحكام صُنْعها . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٧) : « لا تُدِقَّ المسمار (أى : لا تجعله رفيعاً) فيقلقل فى الحلقة ، ولا تغلظه فيقصمها ، واجعله بقدر » .

كـذا وكذا لمَّـا حدثتْ منه هفـوة اسـتغـفر وخَـرَّ راكعـاً وأناب ، يريد سبحانه أنْ يُحنِّن قلوبهم ليعودوا إلى أحضان ربهم .

كذلك سيدنا سليمان حدثتْ منه هفـوة ، فابتلاه الله وعاقبه ، فتاب واستغـفر ، واقرأ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص] والجـسد يعنى : أنه أصـبح لا يسـتطيع الحركـة فى ذاته ﴿ ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) ﴾ [ص] فـماذا كـان من أمـره بعد أن اسـتـغفـر ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) ﴾ [ص]

لذلك يُقال : إن سيـدنا سليمان ركب البسـاط مرة ، فداخله شىء من الزَّهْو أو الإعجاب ، فمال به البسـاط ، فقال له : اعتدل يا بسـاط ، فقال : أُمـرنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله[1] . والمعنى : أنك مـا سخَّرتنا ، إنما سخَّرنا اللهُ لك .

ومـعنـى (الفـضل) الشىء الـزائد ، وقـد أعطى الله داود عـليـه السلام نـعَماً كـثيـرة لم يُعْطها لكثـير من الأنبـياء ، أعطاه الاصـطفاءَ

(١) لم أقف على هذا الأثر فيـما وصلت إليه يدى من مراجع ، ولكن لو أخضـعنا هذا الأثر لما ورد فى القرآن وفى السنة لتيقنا أنه غير صحيح والله أعلم ، قال تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ .. (٣٦) ﴾ [ص] ، قـال ابن عـبـاس : مطيـعـة له حـيث أراد . [الدر المنثـور ١٨٩/٧] . وبهذا انتفى أن تكون الريح قد ردَّت عليه أمراً ، أما الزهو والإعجاب الذى تملَّك سليمان حـينئذ ، فيرد عليه ما رواه سلـمان بن عامر الشيبـانى قال : بلغنى أن رسـول الله ﷺ قـال : « أرأيتم سليـمـان ، وما أعطاه الله تـعالى من ملـكه ، فلم يكن يرفـع طرفـه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى » [أخـرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد] ، وأخرج ابن أبى حـاتم نحوه عن ابن عـمر قـال ، قال ﷺ : « ما رفـع سـليمان طـرفه إلى السـماء تخشعـاً حتى قبضه الله تعالى » [أورد هذه الآثار السـيوطى فى الدر المنثـور ١٨٩/٧] . والله تعالى أعلى وأعلم .

وأعطاه المنهج ، وزاده نعمة أخرى خاصة به ، وهى أنه ألان له الحديد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١) ﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿ مِنَّا .. (١٠) ﴾ [سبأ] دلتْ على أن النعمة ليست من ذاتك ، إنما من الله ، فتقديم الجار والمجرور هنا أفاد قصْر النعمة على المنعم سبحانه ، ومثلها الجار والمجرور فى قوله تعالى فى قصة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى .. (٣٩) ﴾ [طه]

كأن الحق سبحانه يقول لنبيه موسى عليه السلام : لقد أخذك آل فرعون ، والتقطوك من اليم فى وقت كانوا يقتلون فيه الأطفال ، وقد جئتَهم فى صورة تدعو إلى الشك ، لكنهم أحبوك ، ورأوا فيك قرَّة عَيْن لهم ، وأنت وقتها أسمر اللون ، كبير الأنف ، جعد الشعر يعنى : ليس فيك ما يلفت النظر ، لكن تذكَّر أنِّى ألقيتُ عليك محبة منى أنا ، فأحبوك .

والفضل من الله يأتى الناس جميعاً ، لكن الرسل لهم نعَم متميزة، وفضل أعظم فى صورة معجزات . ويُبيِّن الحق سبحانه فضله على نبيه داود بقوله : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ]

(يا جبال) نداء ، فالله ينادى الجبال ؛ لأنها تسمع وتعى هذا النداء ﴿ أَوِّبِى .. (١٠) ﴾ [سبأ] يعنى : رجِّعى معه ما يقول وما يقرأ من الزبور أو من الذكر ، وهذا دليل على أنه يفهم قول الجبال ، وأنها تفهم قوله ، وتُردِّد خلفه ، إذن : للجبال منطق ولغة أفهمها اللهُ نبيَّه داود .

وقد تناولنا مسألة تسبيح الجمادات لـمَّا تعرضنا لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] ورددنا قول مَنْ قال إنه تسبيح الحال لا تسبيح المقال ؛ لأن

الله قال ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] وما دام قد حكم سبحانه أننا لا نفقه تسبيحهم ، فهو تسبيح بالقول .

والذين قالوا بتسبيح الدلالة استعظموا أنْ يكون للجبل كلام ولغة وتفاهم ، لكن هل للجبل كلام معك أنت ؟ للجبل كلام مع ربه وخالقه الذى قال : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

إذن : ما دَخْلك أنت فى هذه المسألة ؟ ولماذا تنكرها ؟

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد] فجمع بين تسبيح الرعد وهو جماد وتسبيح الملائكة ، وهم أعلى أجناس المخلوقات ، وأين وجه الدلالة فى تسبيح الملائكة ؟ فلماذا العجب ، وقد ثبت أن لكل شىء لغةً تناسبه ، وقد رأينا لغة للهدهد ، ولغة للنمل .. إلخ .

فعظمة سيدنا داود أنه فهم لغة الجبال ، وسمع تسبيحها ، ووافق تسبيحُها تسبيحَه ، كذلك ﴿ وَالطَّيْرَ .. (١٠) ﴾ [سبأ] يعنى : يا طير أوِّب مع داود ، وردِّد معه التسبيح .

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] وهذه معجزة أخرى لسيدنا داود ، وإذا قال الله عدة أشياء ، ثم حدث فى الواقع أنه صدق فى واحدة ، ألاَ أُصدِّقه فى الأخرى ؟

فإذا قال سبحانه ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] فلا بُدَّ أن نُصدِّق بذلك ، وأن نعتقد أن الحديد صار فى يد سيدنا داود مثل طين الصلصال الذى يُشكِّله الأطفال كيفما أرادوا[1] ، لأن البعض يرى أن ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] يعنى : علَّمه الله أن النار تذيب الحديد ،

---

(١) أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] قال : ليَّن الله له الحديد ، فكان يسرده حلقاً بيده يعمل به كما يعمل بالطين من غير أن يُدخله النار ، ولا يضربه بمطرقة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٧٦] .

ولو أن الأمر كذلك فليس فيه معجزة ، ولا ميزة على غيره من الناس.

وللحديد ميزات عدة ، وأنواع مختلفة ، وتتوقف مدى أهميته على مدى صلابته ، ولأهميته أنزله الله من عَلٍ كما أنزل الكتب ؛ لذلك تكلم سبحانه فى سورة الحديد عن الرسل مثل موسى وعيسى - عليهما السلام - وتكلم عن إنزال الكتب ، وقال عن الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

ومعلوم أن الإنزال يأتى من جهة العلو ، فالحق سبحانه أنزل الكتب ينطق بها الرسل لهداية المهتدى الذى يسمع ، وأنزل الحديد لردع العاصى وزَجْره ، ففى الحديد بأس شديد فى وقت الحرب ، ومنافع للناس فى وقت السلم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ [الحديد] ينصره فى أىِّ شىء ؟ ينصره فى الحديد ، وفى استخدامه وقت الحروب . وسيدنا داود - عليه السلام - آتاه الله ، وأنزل عليه هذا وهذا : الكتاب للهداية ، والحديدَ للحرب .

لذلك قال له : ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١)﴾ [سبأ] يعنى : دروعاً واسعة ، وهى عُدة الحرب يلبسها الجندى على مظانِّ الفتك ، وخاصة على الصدر ؛ لأن بداخله القلب والرئتين ، ولم يقُلْ له اعمل فأساً ولا محراثاً مثلاً ؛ لأن هذه لمنافع الأرض ، والله يريد ما يحمى المنهج ويزجر العاصى .

وكانت الدروع قبله تُصنع ملساء يتحرك عليها السيف ويتزحلق ، وربما أصاب منطقة أخرى من الجسم ، وكانت تُصْنَع على قدر ما يحمى الصدر ، فعلَّمه الله أنْ تكون واسعة لتحمى أكبر قدر ممكن من الجسم ، فقال ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١)﴾ [سبأ]

وعلَّمه كذلك أن تكون على شكل حلَق متداخلة ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] يعنى : أحكم تداخل هذه الحلَق بعضها فى بعض ، حتى إذا ما نزل عليها السيف ثبت على إحداها ولم يتحرك .

وكان درع الإمام على - كرَّم الله وجهه ورضى الله عنه - ليس لها ظهر ، فقالوا له : ألاَ تتخذ لدرعك ظهراً ؟ فقال : ثكلتنى أمى ، إنْ مكَّنْتُ عدوى من ظهرى[1] .

فتأمل أن الله تعالى لم يُعلِّم نبيه داود أولاً وسائل السلم ، إنما علَّمه أولاً وسائل الحرب وإعداد العُدة لمن نقض كلمة الله ، وحاد عن منهجه ، علَّمه أنْ يُعد له ما استطاع من قوة .

ومعنى : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] اجعلها بتقدير دقيق وإحكام فى النسج ، قال العلماء : السرد : الحلَق التى يتكون منها الدرع ، وبها خروق تُوضع فيها المسامير التى تثبت الحلَق بعضها إلى بعض .

فمعنى ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] يعنى : لا تجعل الخُرْق واسعاً ، لا يثبت فيه المسمار ، ولا تجعله ضيِّقاً فيغلق المسمار الحلقة ، وقال آخرون : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] يعنى : اعمل منها على قدر ما تحتاج ، ولهذا المعنى قصة :

يُرْوى أن سيدنا داود - عليه السلام - كان يأكل من بيت مال

---

(١) أورد هذا الخبر ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « عيون الأخبار » (١٣١/١) ، قال : كان درع على - رضى الله عنه - صدراً لا ظهر له . فقيل له فى ذلك ، فقال : إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يُبْق .

المؤمنين ؛ لأنه المتولِّى لأمرهم ، فأنزل الله مَلَكاً فى صورة رجل ، وجعل الناس يسألونه : كيف يعيش داود ؟ فقال : فيه كثير من خصال الخير ، إلا أنه يأكل من بيت المال ، فلما بلغتْ هذه الكلمةُ داود غضب وتألم لها وبكى ، ثم قال : يا ربِّ لم جعلْتَ فىَّ هذه المسألة ؟ فعلَّمه الله صناعة الدروع ليعيش منها[1] .

فكان يصنع الدرع بأربعة آلاف[2] يعيش منها حتى تنفد ، فيصنع درعاً آخر وهكذا ، فلما أمره الله بصناعة الدروع قال ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] يعنى : اجعلها على قَدْر حاجتك ، ولا تبالغ فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)﴾ [سبأ] كأن الحق سبحانه يقول لنبيه داود : تذكَّر حين تعمل ما طُلب منك أنِّى بصير بعملك مُطلع عليه ، وهذه التذكرة لنبى مأمون على التصرف ، فما بالك بنا نحن ؟

إننا نلاحظ العامل يتقن عمله طالما يراه صاحب العمل ، فإنْ غاب عنه أهمل العمل وغَشَّه ، فالله يحذرنا من هذه المسألة .

هكذا ورد أمر سيدنا داود فى هذا الموضع مختصراً ، وإنْ كانت له قصص فى مواضع أخرى .

---

(١) ذكره الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام من طريق إسحاق بن بشر عن أبى إلياس عن وهب بن منبه . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٧) بعد إيراد الأثر : « إسحاق بن بشر فيه كلام » .

(٢) قاله ابن شوذب فيما أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن أبى حاتم . قال : كان داود عليه السلام يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم . ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف يطعم بها بنى إسرائيل الخبز الحوارى (أى الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض) [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٧٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ[1] وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

يعنى : كما آتينا داود منّا فضلاً ، وكان من هذا الفضل أنْ أوَّبَتْ معه الجبال ، وألنَّا له الحديد ، كذلك كان من فضل الله على ولده سليمان أنْ طوَّعنا له الريح ، وجعلناها تأتمر بأمره .

وسبق أنْ بينَّا أن كلمة الريح إنْ وردت مفردة ، فهى فى الشر والعذاب ، وإنْ جاءت جمعاً دلَّتْ على الخير والرحمة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات] وقال : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف]

وفى الرياح قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر]

وبيان ذلك ، أن الريح إنْ كانت مفردة تُعَدّ ريحاً مدمرة ؛ لأنها تأتى من ناحية واحدة ، والذى يقيم الأشياء ويحفظ توازنها أن الرياح تحيط بها من كل جانب فتستقيم ، فالذى يدعم ناطحات السحاب مثلاً الهواء الذى يحيط بها ، فإنْ أفرغتَ الهواء من ناحية منها انهارتْ نحو هذه

---

(١) القطر : النحاس . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٧٧) . وقال عكرمة : أسال الله تعالى له القطر ثلاثة أيام يسيل كما يسيل الماء . أخرجه ابن المنذر .

الناحية ؛ لذلك كانت الريح الواحدة من جنس العذاب ، والرياح من جنس الرحمة ، ألاَ ترىَ الأعاصير تدمر ؛ لأنها تأتى من جهة واحدة ؟

لكن ، هل سخَّر الله تعالى لسليمان الرياح ؟ أَمْ سخَّر له الريح ؟ قالوا : لم تُسخَّر لسليمان الرياح كلها ، إنما ريحاً مخصوصة وظَّفها له وطوَّعها لأمره ، وهذه الريح أعطتْ سليمان عليه السلام عزَّة ومنعة ، بحيث لا يَقْوَى أحد على مواجهته أو التصدى له .

لذلك كان هو ـ عليه السلام ـ النبى والملك الذى لم يحاربه أحد ، ولم يجرؤ أحد على منازعته مُلْكَه ولا نبوته . كيف وفى يده من القوة ما لم يتوفر لغيره ، فسلطانه سلطان قَهْر إنْ أراد شيئاً أذعن الجميع لإرادته .

أما نبينا محمد ﷺ ، فجاءت دعوته لاستمالة القلوب ، لا لإرغام القوالب ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ **إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** (٤) ﴾ [الشعراء]

ومعنى : ﴿ **غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ** .. (١٢) ﴾ [سبأ] الغدو : السير أول النهار ، والرواح : العودة آخر النهار ﴿ **وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ** .. (١٢) ﴾ [سبأ] أى : أذبْنا له النحاس ، كما ألنَّا لأبيه الحديد ، فهذه واحدة من الأفضال التى خصَّ الله بها سيدنا سليمان ، تذكرون قصة السد الذى بناه ذو القرنين ، فلما انتهى من بنائه قال : ﴿ **آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا** (٩٦) ﴾ [الكهف] يعنى : نحاساً مُذَاباً ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ ينقبه .

ثم يذكر الحق سبحانه أمراً آخر مما خصَّ به سليمان عليه السلام : ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ** .. (١٢) ﴾ [سبأ] ومعنى ﴿ **بِإِذْنِ رَبِّهِ** .. (١٢) ﴾ [سبأ] أن المسألة كلها تسخير من الله لنبيه سليمان ، وليس أمراً ذاتياً من عنده .

لذلك قال : ﴿ **وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ..** (١٢) ﴾ [سبأ] أي : يميل ، أو ينحرف عنه ، أو يعصاه ﴿ **نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** (١٢) ﴾ [سبأ] فأمْر سليمان للجن من باطن أمْر الله ، ومَنْ يَعْصِ أمره كأنه عَصَى أمرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ (١٣) ﴾

المحاريب : جمع محراب ، ويُطلق على القصر الفخم الواسع ، وعلى المكان الذى يتخذه الناس للعبادة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..** (٣٧) ﴾ [آل عمران]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو ما يُنحَت من الحجر مثلاً ، أو يُصوَّر على هيئة إنسان ، أو حيوان ، أو طائر .. إلخ . وفى مسألة التماثيل بالذات يطرأ سؤال : أيمتنُّ الله على نبيه سليمان بأن الجن تصنع له التماثيل مع ما عُرِفَ عنها من أنها رمز للإشراك بالله ، وقد حطمها الأنبياء ونهَوْا عن عبادتها من دون الله ؟

قالوا : حُطِّمت التماثيل لَمَّا اتخذها الناس للعبادة والألوهية ، وكانت من قبل لا تتخذ للعبادة ، بل للخدمة[1] ، وللدلالة على الإهانة

---

(١) على ذكر الخدمة هنا لابد أن أورد ما أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وتماثيل) قال : اتخذ سليمان عليه السلام تماثيل من نحاس فقال : يا رب ، انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة ، فنفخ الله فيها الروح ، فكانت تخدمه ، وكان اسفيديار من بقاياهم . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٧٩] .

والإذلال ، ألم نَرَ فى الآثار القديمة كرسياً أو مائدة تقوم على هيئة مجموعة من الأسود مثلاً ؟

وحتى الآن توجد قصور تقوم شُرفاتها على هيئة رجل مُنْحَنٍ يحمل الشرفة بدلاً من الخرسانة التى نصنعها نحن الآن . إذن : كانت التماثيل تدل على الإذلال والإهانة ، فلما عُبِدت أُمِرنا بتحطيمها وتحريمها .

وقوله : ﴿ **وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ** .. (١٣) ﴾ [سبأ] الجفان : جمع جَفْنة ، وهى القصعة المعروفة ﴿ **كَالْجَوَابِ** .. (١٣) ﴾ [سبأ] كالحوض الواسع الكبير ، وهذا كناية عن كرمه وكثرة إطعامه الطعامَ ﴿ **وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ** .. (١٣) ﴾ [سبأ] أى : قدور ثابتة لكبرها ، فهى لا تُرفع ولا تُحرَّك من مكان لآخر لعظَمها .

لذلك حُدِّثنا فى سيرة سيدنا رسول الله ﷺ عن ابن مطعم قال : كان لرسول الله ﷺ جفنة (قصعة طعام) كنت أستظل بها فى اليوم القائظ فى مكة ، وهذا دليل على سعَتها وكبَرها وكثرة من يُطْعمون منها[1] .

ولما بنى الملك عبد العزيز آل سعود الرياض جعل بها قُدوراً للطعام ، وكان القِدْر يسع الجمل يقف بداخله ، وأذكر أننى أول ما ذهبت إلى مكة دَخلت المبرَّة[2] ، فوجدت بها قدوراً واسعة ، فوقفتُ فى إحداها فوسعتنى .

ومعنى ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** .. (١٣) ﴾ [سبأ] أى : شُكْراً لله

---

(١) مما ورد فى هذا ما أخرجه أبو داود فى سننه (٣٤٨/٣) من حديث عبد الله بن بسر قال : كان للنبى ﷺ قصعة يقال لها الغراء يحملها أربعة رجال . وأخرجه أيضاً أبو الشيخ الأصبهانى (حديث ٦١٤) طبعة الدار المصرية اللبنانية .

(٢) مبرَة وزارة الأوقاف المصرية لخدمة الفقراء ، وكانتا اثنتين : واحدة فى مكة ، والأخرى فى المدينة المنورة ، كما كان هناك سبيل فى منًى .

على نعمه ، لا لتقوتوا أنفسكم فحسب ، إذن : فربُّك يُعلِّمك : لا تعمل على قدر حاجتك فحسب ؛ لأن فى مجتمعك مَنْ لا يقدر على العمل ، فاعمل أنت أيها القادر على قَدْر طاقتك ، وخُذْ لنفسك ما يكفيك ، وتصدَّق بما فاض عنك لغير القادرين . ومعلوم أن شكر النعمة يقيدها أى يديمها بل ويزيدها ، كما قال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم]

أو : المعنى ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا .. (١٣) ﴾ [سبأ] أن أقدركم على العمل حتى تعولوا مَنْ لا يقدر على العمل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ] يعنى : قليل من الناس مَنْ يقابل نعمة الله بالشكر .

لذلك رُوى أن سيدنا عمر - رضى الله عنه - سمع فى الطريق رجلاً يقول : اللهم اجعلنى من القليل ، فتعجَّب عمر من دعوة الرجل ، ولم يفهم معناها ، فسأله عنها ، فقال الرجل ، سمعت الله يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ] وأنا أرجو أن أكون منهم ، فقال عمر متعجباً : كل الناس أعلم منك يا عمر[١] ؟!

فمن الناس مَنْ عنده مَلَكة التقاط المعانى وتوظيفها ، من ذلك ما يُحكَى من أن رجلاً كان يسير فى سوق البطيخ فى بغداد وهو صائم فى يوم حار ، فمرَّ برجل يبيع شراباً مثل العرقسوس مثلاً ، وينادى : غفر الله لمن شرب منى ، فمال إليه وقال له : اسْقنى ، فقال له صاحبه : تذكر أنك صائم ، فقال : والله لقد رجوتُ دعوته .

رجل آخر كان يسعى بين الصفا والمروة ، والمسعى زمان - أنتم لم تروْنَهُ - كان عبارة عن شارع به دكاكين وبيع وشراء وحركة قبل

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمى ، وقد أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٨٢) ، والقرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٤٦) غير معزُوَ .

أنْ يُطوَّر بهـذا الشكل الحالى ، وكـان به رجل يبيع الخـيار وينادى : العشرة بريال يا خيار ، فسمعه رجل يســعى ، فقال متعجباً : إذا كان الخيار العشرة بريال ، فَبِكم يكون الأشرار ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ(١) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

قلنا : إن من الأشــياء التى سخَّـرها الله لسليمـان ليحـقق له مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده أنْ سخَّـر له الريح وسخَّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل .. إلخ .

وتسخير الجن يعنى : أن الله سبحانه وتعالى سخَّر له أخفَّ الخَلْق حركة وأخفاها وهم الجن ؛ لأن للجن طبيعة مخصوصة ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ(٢) مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ولهم أيضــاً خِفَّة فى مـزاولة الأعمـال بأن يقصـروا زمنها ، وأنْ يكثروا حملهـا ، والدليل على ذلك أن سليمان ـ عليه الســلام ـ حينما طلب عرش بلقيس ، وكان فى سبأ قال لجلاَّسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل] فلم يتكلم أحـد من الإنس ؛ لأن

(١) المنسأة : العصا الغليظة ، قال الفراء : هى العصا العظيمة التى تكون مع الراعى ، يقال لها المنسـأة ، أخذت من نسأت البعير أى : زجرته ليزداد سيره . [لسان العرب ـ مادة : نسأ] .

(٢) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم ٢/٩٨].

سليمان قيَّد الإتيان بزمن فوق قدرة البشر ، وقد طلب سليمان العرش بعد أنْ علم أن قوم سبأ قد خرجوا وهم فى الطريق إليه ، ويريد مَنْ يحضر عرش بلقيس قبل أن يصلوا إليه .

حتى الجن لم يتعرض لهذه المهمة جنىٌّ عادى ، إنما عفريت من الجن ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** .. (٣٩) ﴾ [النمل]

وكلمة (عفريت) تعنى : أنه الماهر من الجن ، الشاطر الذى يأتى بما لا يأتى به غيره من بنى جنسه ، وهذا يدل على أن الجن منهم العفريت الماهر ومنهم (اللبخة) يعنى : مثلنا تماماً . وما زلنا فى لغتنا العامية نقول : فلان عفريت يعنى : ماهر يجيد ما لا يجيده الآخرون .

لكن ، كان فى مجلس سليمان مَنْ هو أمهر من العفريت وأكثر منه خبرة وخفَّة ، إنه الذى أُوتى قَدْراً من العلم ﴿ **قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** .. (٤٠) ﴾ [النمل]

فإنْ كان العفريت سيأتى بعرش بلقيس قبل أنْ يقوم سليمان من مقامه ، وربما أقام سليمان فى مقامه هذا ساعة أو عدة ساعات ، لكن الذى عنده علم من الكتاب تعهد بأنْ يأتى به ﴿ **قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** .. (٤٠) ﴾ [النمل] وارتداد الطَّرْف لا يحتاج إلى زمن طويل ، فالطرف[1] يطرف فى الدقيقة الواحدة عدة مرات .

لذلك صوَّر الحق سبحانه سرعة الاستجابة لهذا الفعل ، فقال :

---

(١) الطرف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** .. (٤٠) ﴾ [النمل] أى : بصرك ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [القاموس القويم ١ / ٤٠٠]

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل]

ولم يتعرَّض السياق لتفاصيل الإتيان بالعرش ، ولم يذكر حتى أن سليمان أمره بالإتيان به ، بل : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠) ﴾ [النمل] هكذا مباشرة ؛ لأن الفعل نفسه لم يستغرق وقتاً ، وكذلك جاء التعبير سريعاً مباشراً .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أن الجن كانوا يَسْترقون السمع قبل بعثة محمد ﷺ ، أما بعد بعثته ﷺ فقد منعهم الله من استراق السمع ، فقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن]

وهذه واحدة من ميزات رسالته ﷺ ، فقبل رسول الله صينَ سر السماء جُلُّه . وبعده ﷺ صينَ سرُّ السماء كلُّه . قبل رسول الله كان الجن يصعدون في السماء يسترقُون السمع ، ويلتقطون بعض كلام الملائكة ، ثم يوحونه إلى أوليائهم من شياطين الإنس[1] ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

---

(١) عن أبي هريرة قال : إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مُسْتَرق السمع ـ ومُسْترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء » . أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣٨٠ ، ٥٣٧ بشرح ابن حجر) ، وابن ماجه في سننه (١/ ٦٩) والترمذي مختصراً (٥/ ٣٦٢) وقال : حسن صحيح .

ثم يخبرون الناس بما علموا ، ويدَّعُون أنهم يعلمون الغيب . وفعلاً تأتى الأحداث كما أخبروا ، فيغشُّون الناس ويخدعونهم ويفتنونهم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يفضح الجن فى هذه المسألة ، فقال :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ .. (١٤) ﴾ [سبأ] أى : على سليمان ، وكلمة (قَضَيْنَا) تعنى : أن الموت قضاء ، لا مندوحة عنه ، ولا يترتب على سبب من مرض أو كِبَر أو غيره ، وكما قُلْنا : والموت من دون أسباب هو السبب ، يعنى : مات لأنه يموت .

لذلك يخاطب الحق سبحانه الأحياء ، بما فيهم سيدنا رسول الله بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر] ويخاطبه هو ﷺ أولاً قبل أنْ يخاطب أمته بهذه الحقيقة .

ومعنى (ميِّت) أى : تؤول إلى الموت ، فنحن ونحن أحياء ميِّتون أى : سنموت ، أما الذى مات بالفعل فيسمى (مَيْت) بسكون الياء ، كما قال الشاعر :

* ومَا الميْتُ إلاَّ مَا إلَى القَبْرِ يُحْمَلُ

لذلك ، فإن العلماء لما أعطونَا صورة حسِّية للموت قالوا : مع حياتك التى بدأت انطلق معها سهم الموت إليك ، فعُمْرك بمقدار وصوله إليك ، فنحن - وإنْ كنا أحياء - ميتون .

وقوله تعالى : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ .. (١٤) ﴾ [سبأ] أى : دلَّ الجن ، فضمير الغائبين فى (دَلَّهُم) يعود على معلوم من السياق الأول فى : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. (١٢) ﴾ [سبأ]

قالوا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام أنه كان يعبد الله

ويشكره بمقدار ما أنعم عليه وما أعطاه من الملْك ، فمع كل هذه النِّعم كان يقضى الأسبوع والشهر لا يأكل إلا الخشكار[1] ، وهى (الردة) التى نعرفها ، وهى آخر درجة فى الدقيق ، والتى نسميها فى الفلاحين السِّن ، وهو طعام الفقراء والعبيد ، أما السادة والأغنياء فيأكلون الدقيق الفاخر أو (نمرة واحد) .

وسبحان الله ، أظهر العلم الحديث أن الفائدة فى هذا السنّ الذى يأكله الفقراء ، لدرجة أنه أصبح يُوصَف كدواء ، ويجعلونه الآن على هيئة أقراص كعلاج لبعض الأمراض ، حتى أن أهل الرفاهية الذين عاشوا على الدقيق الفاخر وتغذَّوْا طوال حياتهم على الخبز السياحى والقطايف .. إلخ . يأتى الواحد منهم فى أواخر حياته فيُحرِّم عليه الطبيب كل هذه الأنواع ولا يجد له دواء إلا فى السنِّ وفى الردة التى ما ذاقها طوال حياته ، وكأنها معادلة لا بُدَّ أنْ تتم بين الأغنياء والفقراء .

وهذه البحوث التى أظهرت لنا أهمية (الردة) تلفتنا وتُفهمنا معنى قول الله سبحانه وتعالى وقسمه : ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢)﴾ [الرحمن]

كذلك كان سيدنا سليمان يعبد الله واقفاً ، لا على هيئة مريحة ، فكان يشق على نفسه شكراً لله ، ويقف عابداً لله حتى يتعب ، فيراوح بين قدميه ، ثم يستعين بالعصا يتكىء عليها من شدة تعبه .

---

(١) وردت هذه الكلمة فى لسان العرب (الخُشَار والخُشَارة) يقال : الخشارة والخشار من الشعير : ما لا لُبَّ له . (يقصد الردة أى القشرة) والخشار أيضاً : الردىء من كل شىء . [لسان العرب ـ مادة : خشر] .

وقد قضى الله عليه الموت ، وهو على هذه الهيئة ، فلم يكتشف الجن موته ، وظلوا يعملون بين يديه ويجتهدون خوفاً منه عليه السلام(١) .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهى بموت سليمان مسألة شغلتْ الجن والإنس ، هى قضية علم الجن للغيب ، أراد سبحانه أن يفضح الجن ، وأنْ يُظهر عجزهم عن علم الغيب ، فالغيب لا يعلمه إلا الله .

مات سليمان واقفاً متكئاً على عصاه ، وظل على هذه الحالة حتى سلَّط الله على عصاه دابة الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** .. (١٤) ﴾ [سبأ]

البعض يفهم أن ﴿ **دَابَّةُ الأَرْضِ** .. (١٤) ﴾ [سبأ] الأرض التى تقابل السماء ، لكن المراد الدابة التى تَقْرض كما نقول : قرض الفأر كذا وكذا ، وفعلها قرض يقرض قَرْضاً . مثل : ضرب يضرب ضرباً ، وهذه الدابة هى العتة التى تصيب الخشب وتأكله .

هذه الدابة أو العتة ظلتْ تنخر فى العصا حتى اختلَّ توازن سليمان عليه السلام ، فسقط على الأرض ﴿ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** (١٤) ﴾ [سبأ] أى : ما مكثوا وما ظلُّوا فى العذاب المهين . ومعنى خَرَّ : سقط بلا نظام ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ** .. (٢٦) ﴾ [النحل]

فالخرور انهيار بلا نظام وبلا ترتيب ، وعندها فقط علم الجن

---

(١) أخرج عبد بن حميد عن قتادة : كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما فى غد ، فابتلوا بموت سليمان عليه السلام ، فمات فلبث سنة على عصاه وهم لا يشعرون بموته وهم مُسخَّرون تلك السنة ، ويعملون دائبين . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٨٤] .

بموت سليمان ، وكذلك الإنس ، وعلموا أنهم لا يعلمون الغيب ، ولو علموا الغيب لاكتشفوا موته ، وما لبثوا فى العمل ، وفى التعب والعذاب طوال هذه المدة[1] ، عندها انكشف أمرهم ، وعُلم كذبهم وادعاؤهم معرفة الغيب .

وقوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ [سبأ] يدل على أن الجن يتعب من العمل ويطرأ عليه ما يطرأ على كل حيٍّ من تعب وإجهاد .

والمنْسأة هى العصا من الفعل نَسَأ بمعنى أخَّر ، وسُمِيَتْ العصا منسأة ؛ لأن الإنسان يزجر بها الهوام والحيوانات الضارية التى تؤذيه ويؤخرها عنه ويبعدها ويُردعها ؛ لذلك سميت منسأة .

وسيدنا موسى - عليه السلام - قال فى عصاه لما سأله ربه : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه]

وقد أطال موسى الحديث مع الله ؛ لأن الله تعالى آنسه أنْ يطيل حين قال له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧)﴾ [طه] ولم يقل له مثلاً : ما بيدك ؟ ثم مَن الذى يخاطبه ربه ولا يطيل الحديث معه سبحانه وتعالى ؟ ومع ذلك تدارك موسى أمره ، فقال مُجملاً ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه]

ونفهم من قوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ [سبأ]

---

(١) أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لبث سليمان عليه السلام على عصاه حولاً بعدما مات ، ثم خر على رأس الحول ، فأخذت الإنس عصاً مثل عصاه ، ودابة مثل دابته ، فأرسلوها عليها فأكلتها فى سنة . (الدر المنثور ٦/٦٨٣] .

أن العمل الذى كانوا فيه كان عملاً شاقاً وفيه إهانة لهم ؛ لأن الجن يظنون أن لهم خيرية على الإنس ، وأنهم جنس تسامى على البشر ، بدليل قول أبيهم من قبل : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

فمن الإهانة لهم ، ومن العذاب أنْ يُسخَّروا لواحد من الإنس ، ويعملون له ، ويأتمرون بأمره ، فالعمل الذى كانوا يعملونه لسليمان إنْ لم يكُنْ مُرهقاً لهم بدنياً فهو مرهق نفسياً ، ولم لا وقد سخَّرهم مَنْ هو أدنى منهم ـ على حسب ظنهم .

ولسائل أنْ يسأل : كيف يكون فى العذاب المهين مَنْ يخدم نبياً ويعاشره ؟ نقول : هذه الشبهة جاءتْ من كلمة الجن ، ففهمنا أن الجن كلهم كانوا مُسخَّرين لسليمان ، والحقيقة أن الجنَّ سُمِّى كذلك ؛ لأنه مستور الفعل لا نراه ، والذى سخر من الجن هم الشياطين ، كما قال سبحانه : ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)﴾ [ص]

وقال : ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] وهؤلاء هم أصحاب العذاب المهين ، أما مؤمنو الجن فلم يكونوا مُسخَّرين .

وكلمة (خَرَّ) بمعنى سقط توحى بأن كرامة الإنسان فى روحه ، وفى السر الذى وضعه الله فيه ، فهذا سليمان نبى الله بجلالة قدره ومكانته عند ربه يقول عنه ﴿فَلَمَّا خَرَّ .. (١٤)﴾ [سبأ] وكأنه جماد سقط على الأرض ؛ لأن الروح حينما تفارق الجسد يصير كالجماد ، كالعصا وكالحجر .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الروح ساعة تُسلَب من الجسد أول ما ينسى ينسى اسمه مهما كان عظيماً ، ويقولون : الجثة ثم إذا ما وُضعَتْ فى النعش يقولون : الخشبة .